وَملك فى كبره ونُبلـــه وسُوقةٌ فى قَوْمه وفعله
بَذلتُ مَدحى فيه باغى بذله فجذّ حبلَ أملى من أصْله
من بعـــد ما استعبدنى بمطله ثم أتى معتـــذراً بجهلـــه
يلحظنى فى جده وهزْله لحظَ الأسير حلقات كبله
يعجبُ من تَعجبى من بُخله حتى كأنى جئته بعزلـــه
يا واحداً مقتدراً بَعدله ألبسته الغنى فـــلا تملّـــه
ما أضيعَ الغمد بغير نصْله والشعر مالم يَكُ عند أهله

بذل الشاعر فى ممدوحه ما استطاع من جهد وشعر طيب فلما خابَ رماه بالهجاء . وأسف لأنه استعبده بالمطل ثم اعتذر بالجهل ، ولكن الشعر يضيعُ عند غير أهله كما يضيع الغمد بغير نصله . وهكذا نبرهن أن مبعث هذا الهجاء ردّ كان غير جميل . وبُخلٌ فى العطاء لم يقع من الشاعر موقع القبول ، فثار وهاج وأرسل فيه هذه الصفات الدميمة ، فجعله سُوقة وجاهلا وأسيراً ، وكذلك يقع فى ألسنة الهجاء من لم يدفع بالتى هى أحسن ، ومن لم يُكرم الشعراء ويُغدق على الأدباء . وهذا الذى قلنا ينطبق على أكثر الشعر الهجائى قاله هؤلاء المداحون حين حُرموا فألصقوا بالمهجوين ما شاء خيالهم أن يبتكر من ذمّ وقصاص وتشفّ ، ونحنُ على معرفتنا بكذب الهجائين نريد أن نتبين — كما قلنا — طرائقهم فى الهجاء وأساليبهم فى التصوير ومعانيهم فى هذا الباب ، لننتهى إلى أنهم شبهوا هؤلاء البخلاء بصوَر مقذعة فيها هذا الذى أوردنا . وفيها أن هؤلاء تيوس وأنهم عبيد . وأنهم فى أخلاق البغال . فيقول أبو تمام :

لَهمْ حُلَلٌ حَسُنَّ فهن بيضٌ وأخلاقٌ سمجن فهن سُودُ
وأخلاقُ البغال فكلّ يوم يعنّ لبعضهم خلق جديدُ
وأكثرُ ما لسائلهم لديهم إذا ما جاء قولهمُ : تَعودُ
أناسٌ لو تأملهمْ « لبيدٌ » بكى الخلفَ الذى يشكو لبيد[1]

قال ذلك بعد أن خاب رجاؤه فى أهل نصيبين . وَرُد طلبه عندهم فآب بالخيبة وعاد بالهجاء يرسم بُخل القوم ومطلهم للمواعيد . ولسنا نُحصى هذا

(١) يشير إلى قول لبيد :
« ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب »